FTDES
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

***

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي **كراسات المنتدى**

***

حقوق التأليف محفوظة للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

الطباعة : المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية- سبتمبر 2020
ISSN : 2724-6833

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرُّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

الإدارة والتحرير:
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية 47 شارع فرحات حشاد، 1001، تونس

المديـر المسؤول:
علاء الطـــالبي

أعضاء لجنة التحرير:
حياة عمامو، صلاح الدين بن فرج، رياض بن خليفة، نزار بن صالح،
ماهر حنين، سفيان جاب الله، مالك كفيف، محمد سليم بن يوسف

التدقيق اللغوي:
وليد فيّـــــالة

صورة الغـــلاف:
حسام السعاف

طبـــــــاعة:
الطباعة المتضامنة

المحتوى

سفيان جاب الله

تقديم عام للكُرّاس 07

المحور الأولّ: في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة..... 22

منـــــال دربالي

لمحة تاريخية عن الأوبئة في تونس. 23

حسـام سعّــاف

هوموستازية المُجتمع المختل أو في تضاعف إقصاء الهامش زمن الحدث الوبائي: قراءة أنثروبولوجية. 36

آية بوصحيــح

تعميق اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الفئات المجتمعية في زمن الوباء: (مقاربة قانونية). 49

يوسف موسى

الأداء الخطابي لرئيس الجمهورية في السياق الوبائي: كيف خاطب الفئات الأكثر تضررا؟.. 60

المحور الثاني: بورتريه الفئات السوسيو-مهنيّة الأكثر تضرُّرًا من الحجر الصحّي..... 76

رضـــا كــارم

النّساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكوريّة الفضاء، والهيمنة المزدوجة. 77

هيثم مدوري

عمّال البناء: الواقع، الحَجْر والإجراءات. قراءة في آثار الجائحة وتفكيك الأزمة. 94

أمل الهـــازل

عاملات النظافة في المُستشفيات زمن الجائحة: الفاعلات في المعركة من أجل الحياة..... 111

منتصر النغموشي

بورتريهات عاملي المقاهي والحانات في زمن الكورونا: من أجل رسم صورة للهشاشة الاجتماعية..... 126

فهمـــي البلطـي

طبيب في مواجهة الكوفيد 19: كيف عاش الأطبّاء الموجة الأولى للوباء؟. 145

محمد سليم بن يوسف

أجراء القطاع الخاص والمسألة الاجتماعية في فترة الحجر الصحي: مجالات الفعل الجماعي والتسييس.. 163

المحور الثالث: في رصد تحولّ/تغيّر كميّ ونوعي لظواهر اجتماعيّة إبان الحجر الصحّي 180

خـــالد طبـــابي

ديناميكيات الهجرة غير النظامية في تونس: محاولة في قراءة المشهد الهجري زمن الوباء.... 181

حـــازم شيخاوي

في فهم العنف المسلط على النساء داخل الفضاءات زمن الكورونا.. 202

أحمد الســـاسي

كيف عاشت الأحياء الشعبيّة جائحة الكوفيد 19؟ الكبّاريّة نموذجا..... 214

المحور الثالث:

في رصد تحولّ/تغيّر كميّ ونوعي لظواهر إجتماعيّة إبان الحجر الصحّي

كيف عاشت الأحياء الشعبيّة جائحة الكوفيد 19؟ الكبّاريّة نموذجا

أحمد الساسي

الملخص

لعلّ البشريّة كانت تنتظر جائحة "كوفيد 19" لتعبّر عمّا أحدث فيها من طفرات تراجيديّة ولتشرق بوجهها دون مساحيق الدعاية وتعلن ما أحدث في عقلها الجمعي، فالمصائب والأحداث الكبرى تفرز وتفضح أسوأ ما في الشعوب والمجتمعات، كما أنّها تبرق أفضل وأرقى ما فيها[1]. كذا تقفز المجتمعات العالميّة من أزمة إلى أزمة بعد أن غالت في توقّعاتها بالرفاه الاجتماعي والسلام العالمي بإعلانها تجاوز فظاعات الحروب الدينيّة والعالميّة والأوبئة التايفونيّة والإبادات الجماعيّة و"نهاية عصر الإيديولوجيا"[2] لفتور الطبقات وتشدّقها باكتساح "الهندسة الاجتماعيّة"[3] وتكنولوجيا المعلومات لمختلف مظاهر الحياة البشريّة.

اعتبر الكثير من المحلّلين أنّ سياسات، مخططات وبرامج الدول والحكومات، على تنوعها واختلافها، لاحتواء وباء "كورونا" المستجد والذي تحوّل بعد بضعة أشهر من ظهوره إلى جائحة عالميّة يمكن أن يساعد في عمليّة تحليل ونقد وتفكيك الظواهر الاجتماعيّة والاقتصاديّة الناشئة، إلّا أنّه لا يبدو من الراجح القول بأنّ فهم ظواهر السلوك المجتمعي المعاصر لفيروس الكورونا المستجد يمكن أن تحصل في الأذهان دون رفع اللثام عن حقيقتها اليوميّة ودون فهم وتفكيك الخلايا المتفرّدة للمجتمعات. كان ذلك داخل النسق العام للقرارات الحكوميّة والمراكز البحثيّة الوطنيّة والعالميّة أو انطلاقا من السيرورات التفاعليّة الذاتيّة والخصوصيّة للأفراد والجماعات الإنسانيّة التي تتصل بوقائعها بشكل متواصل وتتواتر محصّلاتها التجريبية لتنتج حيثيّات تؤدي إلى نقلنا لما نسميه واقعة الكورونا وواقع التهميش داخل الأحياء الشعبيّة بتونس التي سترسم بدورها مشهدا مستقبليّا يؤكد خطورته.

[1] أحمد ساسي، " تجارة الكورونا: الحقيقة تسطع عند الأزمات!، الرابط http://www.astrolabetv.net/ar/، تاريخ النشر، 04-05-2020.

[2] كان ألمفكّر الفرنسي ألبير كامو (1913-1960) أوّل من استعمل هذه العبارة في إحدى مقالاته المنشورة سنة 1946 ووقع تداولها بعد تقديم عالم الإجتماع الفرنسي رايمون آرون (1905- 1982) في دراسته المقدّمة إلى المؤتمر العالمي حول مستقبل الحريّة المنعقد بإيطاليا سنة 1950. وكانت شهرة المصطلح مع المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما (1952) في كتابه "نهاية التاريخ و الإنسان الأخير "1992 .

[3] MITNICK, KEVIN D, & Simon, William L, (2015), THE ART OF DECEPTION Controlling the Human Element of Security, Foreword by Steve Wozniak.

Abstract:

It is conceivable that humanity has been waiting for this pandemic Covid-19 to express what happened from tragic mutations in order to setfree from propagandaandalsoto find out what happened to the collective minds. Disastrous times bring out the worst of people and societies and bring to the surface the

finest too. Societies recovered fromone crisis to another while they were expecting social welfare and world peace. They bragged constantly aboutovercoming religious wars, world wars, typhus, genocides, and ideological conflicts. They believed that the acquisition of technology in a superior globalizedworld would banish these conquests.

Several analysts consider that the policies and programs of governments adopted to cope with covid-19 have greatly differed from oneanother. The variation can beused as a tool to analyze and disentangle these latest social phenomena. However, that does not mean it can unravel its daily struggles without a proper understanding of societies,the pattern of governmental decisions along with national and international research laboratories. Covid-19 has made an impact on individuals and on their standards of living, which resulted in what is called‘after covid-19’. The reality of marginalization in the hood of Tunis that will remain long after recovering from the coronavirus creating an uncertain and unsafe future.

التعاطف الإنساني يربطنا ببعضنا – ليس بالشفقة أو بالتسامح، ولكن كبشر تعلموا كيفية تحويل المعاناة المشتركة إلى أمل للمستقبل.

نيلسون مانديلا

« L'expression vivante de la nation c'est la conscience en mouvement de l'ensemble de peuple »

Frantz Fanon, les damnes de la terre

تقديم:

تلامس هذه الورقة جانبا من جوانب التأثيرات المباشرة لجائحة فيروس كوفيد-19 على الأحياء الشعبيّة في تونس وذلك في إطار الكراسات الّتي يفعّلها المنتدى التونسي للحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة لمواكبة ومسايرة ما يصيب المجتمع العالمي والمجتمع التونسي من تقلّبات وتغيّرات على مختلف المستويات، فمنذ تفطّن العالم إلى هول المصاب الصيني من الوباء انكب العلماء والباحثون في علوم الاجتماع والاقتصاد والفلسفة شأنهم شأن المراكز البحثيّة الطبيّة والبيولوجيّة لإيجاد الوصفات اللازمة التفسيريّة والعلاجيّة لما قام به الفيروس من شطحات على هوى الإنسان ولملاحظة ودراسة ومتابعة تطوّر وتعاظم أثر الجائحة على مختلف جوانب الحياة على كوكبنا، حاملين على عاتقهم مسؤوليّة الخروج من هذا الوضع الوبائي بأقل ما يمكن من الفاجعة والكارثة. استفرد العلماء طيلة الفترة الأولى بقيادة المشهد مقدّمين الوقت الكافي للدول لاختيار سياستهم لتتحوّل بذلك بعض هذه الدول من دول قانون إلى "حالة استثناء"[4] لتحجر المجتمعات المفتوحة في كهوفها ويحظر فيها التقارب مع الأقربين.

كانت صيحات الفزع تتصاعد منذ بداية الجائحة، من سيتحمّل وزر كل هذا الدهاء الوبائي؟ هل هم أنفسهم من مشوا طربا على حافة الانغلاق و"تعصب الملة" أم من وُضع قربانا على "مذبح العولمة"؟[5] من سيعبر الحجر؟ هل هم من ينظرون لأرض الجنوب وعلى يمينهم أكثر من كتاب وفي عيونهم حبّ الحياة والإنسان؟ من هو المسؤول؟ غضب الله على قوم حبّذوا الخضوع لمؤسسات الهيمنة و "الاستلاب"؟ أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مغامرة للمخابر الأمريكية التي تريد هتك سور

[4] Giorgio Agamben, État d'exception (Homo Sacer II, 1), Paris, Seuil, 2003, 151 p. Trad. de l'italien par Joël Gayraud, Stato di eccezione (Homo Sacer II, 1), Torino, Bollati Boringhieri, 2003, 120 p

[5] فتحي المسكيني، الفلسفة والكورونا: من معارك الجماعة إلى حروب المناعة، مؤمنون بلا حدود، 24 فبراير 2020

https://www.mominoun.com/articles/الفلسفة-والكورونا-من-معارك-الجماعة-إلى-حروب-المناعة-7028

الصين الاقتصادي وقطع طريق الحرير؟ أم هي مخابر الصين التي تسعى إلى تمريغ أنف أمريكا الترامبيّة؟ أو لعلّهم اليهود ينتفون لحى باقي الإبراهيميين أو ما تبقّى منها؟ لعلّها الهند أرادت الانتقام للإنسان من شرق نسيَ عمقه وغرب محتضر؟ هكذا هي الفرضيّات هوجاء ما إن تجد مرتكزا حتى تتحوّل إلى نظريّة قتل أخرى فتستبق الإجابات بتداعٍ مسبقِ فضفاض...

نحن كمجمّعات فيروسية كبرى ما كان ممكنا أن نتكشّف على صورنا ومعرفتنا بحاضرنا دون هذه المجاهر الإلكترونية والعدسات المعدنيّة للمعيشي الحثيث وما الجينيالوجيا الأخلاقيّة و "التفكيك" و"الأركيولوجيا" إلّا جزء من التفوّق الذي مكننا من "رفع اللثام" والتصنيف والتعدي والتجاوز والتكسير لهذه الجسيمات أحاديّة الخليّة ومتعددة الأنماط التي أطلق عليها الرومان تسمية "virus" السم المنبعث من المستنقعات والمياه الراكدة، أمّا العرب فسمّوها العافية آكلات البكتيريا والجدري القاتل لتمرّ لرسم تاريخ كامل من الصراع مرورا بالطاعون الماغولي، الكوليرا، التايفود الياباني، والحمّى الإسبانية ، وصولا إلى الكورونا الصينيّة .

تتعدّد الأسماء، إلّا أنّ هذا الأفق السيميائي لا يقدم لنا غير ذاكرة مليئة بصور الجثث والنعوش وخوف عميق أصيل من الأوبئة ومن قصص الأهوال، أمّا علوم الحاضر فها هي تقول: "اتبعوا التعاليم وكلّ شيء سيكون على ما يرام. "لا أمل" إلاّ فيكم ولا نهاية للجائحة إلّا بكم. "

تصدح الدولة: "أنا هنا حاضرة لكلّ منكم على قدر الإمكان ولا يمكن للإمكان أن يكون أكثر ممّا كان"

فكيف انسابت جائحة الكورونا إلى الواقع المعيشي للتونسيّين؟ وماذا أحدثت في مجتمعات الهامش من تغييرات؟ هل مثلت الإجراءات المتبعة من قبل الدولة التونسيّة وقاية للفئات الضعيفة أم أنّها زادت من وطأة معاناتها؟ أكان دور "الفاعلين الاجتماعيّين" إعادة لتموقع الـ"هابيتوس"[6] في ظل الحجر الصحي الشامل كظرف استثنائي للمجتمع، -وحالة الطوارئ كـ "حالة استثنائيّة" للدولة لتأبيد إستراتيجيّات الهيمنة والحيف- أم أنّ هؤلاء الفاعلين استطاعوا ترويض تاريخ كامل من أجل الخروج من الجائحة بإمكانيّات تحرّريّة حقيقيّة؟

منهج العمل:

لا تمثّل هذه الورقة بحثا أكاديميّا أو فكريّا معمّقا بقدر ما هي محاولة لكشف ما انساب إلى مجالات العيش اليوميّة لمتساكني الأحياء الشعبيّة في تونس عامة، ولمتساكني معتمديّة الكبّاريّة خاصة، طيلة فترة الحجر الصحّي من تغيّرات سلوكيّة. وقد اعتمدنا في ذلك على ملاحظتنا لمختلف التجارب المنقولة من الأحياء بالكبّاريّة واتصالنا المباشر مع الفاعلين ومواكبتنا وانخراطنا في العمل

[6] Bourdieu Pierre, avec Loïc J D Wacquant, Réponses. Pour une anthropologie réflexive, In : Revue française de sociologie, 1993, 34-2, p113

الميداني طيلة أطوار الجائحة وخوضنا في هذا الموضوع من زاوية الباحث الفاعل[7] و قد قمنا بتدوين وتوثيق الوقائع والأعمال، كما هي محاولة نقديّة لجهر بعض الأماكن التي بقيت في ظل الروايات الرسميّة للأحداث المستجدّة وذكر لآليّات الفعل التضامني التي تبلورت في نفس الفترة مع استرجاع لمنطوقات وأدوات تاريخيّة للتعاضد الاجتماعي لمواجهة تداعيات الحجر الصحي الشامل، وللتعرّف عن قرب على حيثيّات التغيّر الذرّي لسلوك شخوص وجماعات وفئات لها مقدّماتها الخاصة وواقعها الفريد في التفاعل مع الأحداث العالميّة والوطنيّة.

سنتتبع انطلاق سرديّة الجائحة داخل الأحياء الشعبيّة عبر فتح تجارب معيشيّة وميدانيّة وأحداث لها أثرها في الواقع كان لنا فيها تدخل مباشر وحضور مستمر. وقد استجوبنا مجموعة من الشباب أصيلي منطقة الكبّاريّة في مختلف أحيائها على ثلاثة مستويات أساسيّة، يكمن الأول في تعايشه مع الجائحة، والثاني في ملاحظاته حول سلوك المتساكنين في فترة الحجر، أما الثالث فهو انخراطه في المبادرات التي وقعت في المنطقة.

الكبّاريّة: صورة الهامش النمطيّة بين معاناة النسيان والأزمات المتواصلة:

مثّلت نشأة الأحياء الشعبية في تونس عامة والكبّاريّة خاصة حدثا فريدا في تاريخ البلاد انطلق منذ فترة الاحتلال الفرنسي للأراضي التونسيّة في أربعينيّات القرن العشرين، إذ كان ضرورة لترضية واستيعاب المحاربين الأفارقة والتونسيين المشاركين في الحرب العالميّة الأولى والثانية، واستجابة لتصريف الكثافة السكّانيّة العالية [8]نتيجة الانفجار الديمغرافي الذي عرفته العاصمة واستيعابا لحالة تقهقر الريف وتجسيدا لرغبة الآلاف من التونسيّين في اقتحام بوابة التحضّر والتمدّن ..

تحوّل هذا الحي منذ سبعينيات القرن الماضي إلى أحد أكبر وأخطر الأحياء الشعبيّة نتيجة غياب السياسات التنمويّة العادلة واعتماد مقاربة الرقابة الأمنية بعيدا عن" الرقابة الرسمية " فصارت في شكل بانوبتيكون[9] Panopticon ممتدا ومسرحا للصور النمطية الراسخة في ظل "اللامرئية الاجتماعية[10]" ومجالا للأحكام القيمية والأخلاقية المحافظة والتمرد الاجتماعي الفوضوي

[7] أمين الحسيني، الباحثون الفاعلون كأفق تفكير: من مدارج الكليّات الى الفضاء العام، كراسات المنتدى، الكراس عدد 2، سوسيولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 14 جانفي 2014، جويلية 2019

[8] G. Blachere, Bulletin économique et sociale, Les aspects spécifiques de la crise de logement urbain en Tunisie et leurs solutions, 1953, éd 80, p 64, 65

[9] جيريمي بيناثام (1748-1832)، عالم قانون وفيلسوف أنجليزي صاحب تصميم لسجن البانبتيكون ويعني Pan "الكل"او "الشامل" و opticon "المراقبة" أي المراقبة الشاملة، كما وقع استعمال نفس الكلمة مع ميشال فوكو (1926 - 1984) في كتابه "المراقبة و المعاقبة" (1975) للإشارة للأجهزة الخفيّة لفرض الانضباط و الإخضاع و التي تستعمل في المدارس و المصانع و الإدارات.

[10] أكسل هونيت، مجتمع الاحتقار، 2002

وهدفا مميّزا لوسائل الإشهار والإعلام والدعاية، وسلّما للأحزاب السياسية وخزّانا لقوّة العمل لرؤوس الأموال .

تعتبر معتمدية الكبارية ثاني أكبر معتمدية من ولاية تونس من حيث الكثافة السكانية، إذ تمثل 10 بالمئة من مجموع سكان الولاية وتمتد على 1461 هكتارا، حيث تضم أكثر من 98 ألف نسمة [11]وتعد نسبة الشباب والأطفال [12]60 بالمئة من مجموع السكان ونسبة غير المتمدرسين 12.3 بالمئة .[13]

هذا وتمثل التجارة أهمّ مجالاتها الاقتصاديّة، و يعتبر قطاع الخدمات الأكبر من حيث عدد الناشطين، إذ يمثّل 38 بالمئة يليه قطاع الصناعات المعمليّة الذي يستقطب 18 بالمئة من اليد العاملة وتبلغ نسبة البطالة 23 بالمئة [14] ،وهو ما يجعل من هذه المنطقة لا فقط خزانا للقوة العاملة المنتجة والمستهلكة، بل وأيضا حاضنة خصبة للجريمة وتعاطي المخدرات والتسرب المدرسي والتطرف وشبكات الهجرة غير النظاميّة والاقتصاد غير المهيكل، حيث ينخرط في هذه المظاهر الاجتماعية عدد كبير ومتزايد من الشباب والمراهقين نتيجة لضعف حضور مؤسسات الدولة وندرة مرافقها الصحيّة والثقافيّة والاقتصاديّة وضعف ميزانيّتها الماليّة وإمكانيّاتها اللوجستيّة مع غياب إستراتيجيّات للتعامل مع الإشكاليّات الكبرى للمتساكنين، وهو ما مثّل عاملا رئيسيا لتنامي الإحساس بالظلم والضيم والإهمال والاحتقار في ظل "لا جدوى الفعل ولا معقولية العالم" [15]بعبارة ألبار كامو.

هذا الهامش الحضري الجنوبي المحيط والمحاصر للعاصمة شكّل مركزا لسطوة القرارات السياسية والاقتصاديّة المسقطة تتلاقفه أيادي المغرّرين والانتهازيين ليقع إقحامه في معارك سياسيّة وإيديولوجيّة ودمويّة لم تزد إلا من تعميق اغترابه وعزلته ليترك دون دفاعات أمام الكورونا خاصة مع شبه الغياب للمرافق الطبيّة العامة وفقدان أدوية الأمراض المزمنة وندرة الكمّامات وغلاء مستلزمات التعقيم الصحيّة.

ينساب مشهد الفاجعة بتفتّح شهيّة أرباب الأعمال على تصريف العمّال المتعاقدين ليصل عددهم إلى عشرات الآلاف وتوجّه مرتزقة منظومة الريع والمافيا إلى السطو على مسالك التوزيع للمواد الغذائيّة وإلى احتكار البضائع، فنجد في قائمة المحتكرين عُمدا ومعتمدين ونوّابا[16] ...الّذين

[11] المعهد الوطني للإحصاء، تونس من خلال التعداد السكاني العام للسكان والسكنى، 2014، ص3

[12] نفسه، ص6

[13] نفسه، ص11

[14] نفسه، ص20

[15] ألبير كامو (2014)، رواية الغريب (الطبعة الأولى)، بيروت: منشورات الجمل، الصفحة 1 وما بعدها.

[16]نائب متورط في احتكار السميد: شوقي الطبيب يسرد التفاصيل Mosaique FM , 1 avr. 2020

يمثّلون فقط أغصان شجرة تخفي وراءها بارونات الاحتكار المشيّدين صروحا اقتصاديّة وماليّة والمتقاسمين مناطق النفوذ الاقتصادي بعد انسحاب الدولة المخجل من القطاعات الحيويّة والأساسيّة.

لقد عمّقت الأزمة الاقتصادية المتواصلة بالبلاد التونسيّة من النظرة السوداويّة لمتساكني الكبّاريّة وجعلت أغلبيّة شبابه عازفا عن المشاركة في الحياة العامة وإن لاتزال بعض المبادرات تخطّ مشهدا مغايرا لمقاومة واقع التهميش والاحتواء لتبرز كجهاز مناعي مبعثر طيلة فترة الحجر الصحي.

تأثّرت الكبّاريّة بالوقائع والأحداث والتقلّبات الوطنيّة والعالميّة بشكل سريع وحاد، إذ تنامى عجز العائلات على توفير القوت اليومي وتوجّهت أصابع الاتّهام إلى العمد والمعتمديّة والبلديّة لتقصيرها وعجزها على الإحاطة بالفئات الهشّة، كما تنامى العنف الأسري وبدأ العديد من الشباب في الحديث عن ضرورة مغادرة البلاد نحو الدول الأوروبيّة رغم هول ما عرفته هذه الأخيرة من أزمة خانقة جرّاء عدم قدرتها على محاصرة الجائحة، وقد سجلت العديد من عمليّات الهجرة غير النظاميّة التي شملت أبناء أحياء الكبّاريّة .[17]

بورتريه رقم1

يقول خالد.غ 33 سنة تقني سامٍ في إصلاح آلات الطباعة وهو عاطل عن العمل منذ 2017: تلقيت خبر انتشار الكورونا من نشرات الأخبار والذي قدّم على أنّه مرض خطير ومعد يجب اتباع إجراءات الوقاية و الالتزام بالحجر الصحي لتفادي الإصابة به، قمت بإجبار كلّ من والديّ على المكوث في المنزل وكنت أقوم باقتناء كل الحاجيات المنزليّة .في الأيام العاديّة كنت أحاول تدبر أمري بقيامي ببعض الأنشطة التجاريّة ولم يتوقف ذلك طيلة فترة الكورونا، كنت أبذل مجهودا أكبر وهو ما وفّر لي استقرارا على المستوى المالي إلّا أنّ قلقي الأكبر هو تدهور الحالة الصحيّة لوالدتي نتيجة انقطاع الأدوية وتوقفها عن حصص التدليك بسبب عدم قدرة المختصّة في تقويم الأعضاء على التنقل لمنزلنا. أمّا أنا كنت دائم التنقل بين المستشفيات والصيدليّات للبحث عن الأدوية دون جدوى .هذا الوضع جعلني أحس بالغضب والعجز وهو ما دفعني إلى التفكير في الهجرة خاصة مع وجود العديد من أبناء الحي المتحمّسين لهذه الفكرة .طيلة فترة الحجر الصحّي كنت دائم الاطّلاع على آخر المستجدّات على صفحات الفايسبوك وصادف أن وجدت مبادرة في إحدى صفحات الحي تعنى بتجميع الأدوية فقمت بالاتصال بهم وقد وفّروا لي بعضا من الأدوية التي كانت أمّي في حاجة لها، فقرّرت الانخراط في هذا النشاط الّذي كان يتمثّل في جمع أدوية ومستلزمات طبيّة وتوزيعها على مستحقيها .إلّا أنّ نشاطنا كان لا يلاقي استحسانا من بعض المحسوبين على

[17] راجع بلاغات وزارة الداخليّة حو الهجرة غير النظاميّة طيلة فترة الحجر وخاصة في شهر رمضان.

أحزاب سياسيّة لرفضنا التعامل معهم ولاشتباهنا في مصادر تمويلهم وذودنا بأنفسنا عن التوظيف السياسي، كما قمنا في أكثر من مناسبة بالتشهير بممارساتهم وهو ما جعلهم يشنون حملات تشويه في حقّنا لم يكن لها تأثير على أرض الواقع إذ طوّرنا عملنا وأطلقنا تسمية "سبيسيريّة الحومة "على الصيدليّة التي أنشأناها.

العائلة والحي " الحومة[18]"في مواجهة الحيف والحجر

شهدت المجتمعات الحضريّة المعاصرة تراجعا لدور العائلة وانحسارا لتأثيرها ومساندتها لأفرادها وساهم فتور العلاقات الأسريّة في تراجع مبادئ التآزر والتعاون الأسري، نتيجة لتعاظم مقتضيات الحياة ومتطلّباتها. إلّا أنّ الأحياء الشعبيّة في تونس بقيت محافظة على روابط أسريّة متينة إلى حدّ ما، حيث استطاعت تخفيف معاناة الأفراد الأقلّ حظا طيلة فترة الحجر الصحّي. في حين أنّ الروابط "العروشيّة" ترهّلت وتراجع دورها بعد أن كانت تمثّل رابطا اجتماعيا هاما في تاريخ الأحياء الشعبيّة في تونس، فدورها الاجتماعي كان قد بدأ يتقهقر منذ بدايات الألفيّة الثانيّة لحساب روابط الانتماء إلى الحي "الحومة" وروابط الجيرة ما عدا بعض الاستثناءات التي حافظت على علاقات وطيدة إمّا لتشكيلها ولتمركزها في أحياء كاملة كـ"الفراشيش" أو لحداثة توافدهم كـ"الجلامة".

بورتريه رقم2

تحدّث فارس وهو تلميذ يدرس الطبخ، ممثل مسرحي، 21 سنة، حي البلديّة، عن معايشته للحجر الصحّي "كنت أتابع انتشار حالات العدوى بفيروس الكورونا منذ أن تصاعدت وتيرتها في الصين وقد أصبح هاجسا يؤرقني ليقيني بأنّه سيصيب التونسيّين بعد انتشاره في عديد البلدان في العالم وخاصة الدول المجاورة كالجزائر وإيطاليا. بعد تسجيل أوّل إصابة في تونس، بدأ تفكير العائلة منصبّا على شراء مواد الوقاية من الفيروس ولكن ندرة معقم اليدين والكمّامات وغلاء أسعارها جعلنا نلجأ إلى شراء كمّيات مهمّة من البصل والثوم. أجبرني أبي على البقاء في المنزل إلاّ أنّي كنت أغادره وأعود قبل حظر التجوّل وأمضي وقتا أكبر مع العائلة حيث وطدت علاقتي بهم رغم المشاحنات التي كانت تحدث بين الفينة والفينة، كما تابعت التطوّرات على شبكات التواصل الاجتماعي وكنت بين الحين والحين أقوم ببحوث حول المدارس والأعمال المسرحيّة في تونس. مثلت جراية تقاعد والدي الدخل الوحيد لعائلتنا المتكوّنة من ثلاثة أفراد وكنت أقوم ببعض الأعمال التي أحصّل بها بعض المداخيل كالطبخ في المناسبات والتنشيط وأخصص الجزء الأكبر للمساهمة في مصاريف العائلة، إلاّ أني توقفت تماما عن هذا النشاط طيلة فترة الحجر الصحّي ما

[18] سفيان جاب الله، الراب، السلفيّة العلميّة والألتراس، حين تحكي "الحومة الشعبيّة"، تونس... هنا "الحومة الشعبيّة"، المراسل، 2019

جعلني أعيش الخصاصة وضيق الحال. لاحظت أنّ سلوك العديد من الأفراد قد تغيّر في فترة الحجر الصحّي العام إذ تخلّوا على المصافحة باليد لتكون المصافحة بالقبضة والكوع، وأصبح الكثيرون عدائيّين ومضطربين."

يضيف فارس" حاول الكثير من الأقارب الاتصال بي وحاولوا لومي على عدم اتصالي وعدم قيامي بزيارتهم، في حين كان تركيزي منصبّا على ضمان الحماية الضروريّة لكلّ من والديّ. لقد اختار الكثير من الأشخاص كسر الحجر ولم يتقيّدوا بالتباعد الاجتماعي وعمد بعض أصحاب المغازات الصغرى إلى تخزين وبيع كميّات مهمّة من المواد الغذائيّة بطريقة غير شرعيّة وتجرّأ آخرون على بيع الكمامات غير الصحيّة بأسعار مرتفعة مستغلّين ندرتها في الأسواق. هذا لم يحل دون أن يتحلّى البعض الآخر من الناس بسلوك إيجابي من حيث معاضدتهم لبعضهم البعض بتقديم معدّات منزليّة ومواد غذائيّة وحتى تنظيم حفلات في أيام العيد ممّا خفّف من الضغط النفسي على العائلات."

وهن "دولة القانون" يؤبد "حالة الاستثناء"

إنّ المجهودات الّتي بذلتها هياكل الدولة من السلط المحليّة والمركزيّة طيلة فترة الحجر الصحّي لم تغطّ عجزها على محاصرة الاحتكار والمحسوبيّة والتلاعب بالأسعار ومسايرة الحاجيّات اليوميّة للمواطنين ذوي الوضعيّات الاجتماعيّة الهشّة وذوي الاحتياجات الخصوصيّة. كما استحال عليها ضمان تنظيم المرافق العموميّة والخاصة الّتي شهدت اكتظاظ وتدافع المئات من المواطنين كل يوم، منها مقر المعتمديّة بالكبّاريّة الّذي شهد بعد إقرار تقديم الإعانات الاجتماعيّة يوم 21 مارس 2020 من قبل رئاسة الحكومة التونسيّة توافد الآلاف من المواطنين دون أدنى وقاية أو انضباط لتعاليم التباعد الاجتماعي (وقع تسجيل أكثر من 8 آلاف مطلب)، كما انحصرت عمليّات التعقيم في مناطق دون أخرى لندرة آلات الرش واليد العاملة فوقع التعويل على المبادرات الأهليّة والمدنيّة لتغطيّة هذا العجز. وكأنّ حالة الطوارئ وحظر الجولان لم يستهدفا حماية هذه الآلاف ليصبح قول شيشرون خطيب روما الشهير "أن سلامة الشعب تسمو على كل قانون وضعي، وأنه من الضروري الاتجاه إلى أنجع الوسائل لمواجهة الأزمات العصيبة." غير ذي معنى وتصبح القوانين الاستثنائيّة تهدف لمحاصرة حريّة الأشخاص لا حمايتهم.

بورتريه رقم3

فراس .ح 25 سنة حي النور عامل يومي : في بادئ الأمر اعتبرت الكورونا على أنّه فيروس عادي إلّا أنّ الخشية من هذا المرض كان يتصاعد مع ارتفاع أعداد الوفيات وقد امتثلت بحظر الجولان

لعشرة أيام لكنّي مللت قضاء وقتي في المنزل الّذي لم أغادره بتاتا. هذا الروتين دفعني للخروج من المنزل للتجوّل في الحي ومقابلة الأصدقاء وكان أفراد العائلة ضد خروجي من المنزل خوفا من جلب العدوى لكنّهم تفهموا حالتي النفسيّة ومع قدوم شهر رمضان اتصل بي صديق ليطلب معونتي لتسجيل شريط وثائقي عن تاريخ الكبّاريّة فاستجبت لذلك كما انخرطت في أعمال أخرى تجمع التبرّعات للعائلات المعوزة وتوزيعها في ساعات متأخّرة من الليل، كما قمت رفقة مجموعة من الشباب بتنظيم الصفوف في المعتمديّة ومراكز البريد وكان ارتداء الأشخاص للكمّامات واستعمالهم للمعقم يقارب العشرين بالمئة. كما تجدر الإشارة إلى أنّ التزام كبار السن بالتباعد الاجتماعي والحجر الصحّي أكبر بكثير من الشباب. عانت عائلات عديدة منهم عائلتنا كثيرا في فترة الحجر الصحّي جرّاء ارتفاع الأسعار وضعف المداخيل كما لم نتحصّل على المعونات المقدّمة من الدولة رغم أنّ والدي عامل يومي كان قد توقّف عن العمل منذ بداية الحجر وكان قد تقدّم بأكثر من مطلب في الغرض في حين أنّ هنالك العديد من ميسوري الحال قد استفادوا من المنح والمساعدات."

معضلة الاختيار أو سياسة المقايضة: إمّا الجوع أو الوباء

مع حشر الدول في حدودها، وولوج الشعوب مناطقها، اندسّت العائلات في بيوتها لتتغيّر ملامح المعيشة اليوميّة، فتباعدت الأجساد وانعزلت لمستقرّها منضبطة لما يتّسم به الوضع الصحّي العالمي والوطني ومن وراءه الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة من تفرّد وطرافة تراجيديّة فكانوا بذلك هدفا للقنوات التلفزيّة والإذاعيّة وصفحاتها على المواقع الافتراضية التي لعبت دورا مهمّا في رسم "مشهد فرجويّ"[19] نشر الفزع بالتركيز على ندرة المواد الأساسيّة وتدافع الناس على شرائها، صناعة رأي عام[20] متبلّد بترك المجال لغير ذوي الاختصاص لإبداء تصوّراتهم وآرائهم حول ما يعيشه العالم والوطن من جراء فيروس الكورونا المستجد واستبلاه العقول بصناعة الموافقة [21] بتبييض بارونات الاحتكار وخلق بطولات وهميّة لمن استثروا على حساب آلام المواطنين ضمن

[19] أنظر Guy Debord, La société du spectacle, Les Éditions Buchet- Chastel, Paris, 1967.

[20] Noam Chomsky écrit-il : « [...] la terminologie a changé dans ce domaine au cours de la Seconde Guerre mondiale, avant laquelle le terme de propagande était assez ouvertement et librement utilisé pour évoquer le contrôle de l'"esprit public". Par la faute de Hitler, le terme finit par avoir d'assez malheureuses connotations, et on s'est décidé finalement à l'abandonner. De nos jours, on utilise d'autres termes, mais quand on lit les travaux de sciences sociales et les écrits produits par l'industrie des relations publiques des années 1920 et 1930, on constate que leurs auteurs qualifient ce qu'ils font de "propagande". » (« Propagande & contrôle de l'esprit public », Agone, no 34, 2004, p. 39.)

[21] « la création du consentement n'est pas un art nouveau. Il est très ancien et était supposé disparaître avec l'apparition de la démocratie. Mais ce n'est pas le cas. La technique de cet art a, en fait, été énormément améliorée, parce qu'elle est à présent basée sur l'analyse plutôt que sur des règles approximatives. Ainsi, grâce aux résultats de la recherche en psychologie, associés aux moyens de communication modernes, la pratique de la démocratie a effectué un tournant. Une révolution est en train de prendre place, infiniment plus significative que tout déplacement du pouvoir économique. » Public Opinion (1922), Walter Lippmann, éd. Free Press, 1965 (ISBN 978-9562916134), partie V, chap. XV, 4, p. 158

حصص جمع التبرّعات استيعاب واحتواء المشاهدين تدريجيّا داخل البيانات والإحصائيّات المركزيّة للوزارات والهيئات الحكوميّة [22]جعلت بعضا من المقدّمين التلفزيّين المتحمسين يتهافت بتصاريح صمّت الآذان " لقد استوت البشريّة أمام الكورونا، الغرب والشرق، الشمال والجنوب، الفقير والغني" وإن كانت هذه المقولات محفّزة للبعض إلّا أنّها جانبت كل الحقائق والوقائع وأكّدت أنّ سننا تفاضليّة حبكت في مراكز الحكم عاد نصيب الأسد فيها إلى الأعراف ومديري البنوك المنددين بضعف الحال وضياع الأعمال وخسارة الأموال.[23]

الفئات الأكثر تضرّرا: المعاناة المتواصلة

مشاهد وأقوال صادمة أغفلت الفاجعة في الجهة المقابلة، حيث بدأت الفئات التي ترزح تحت عتبة الفقر والتي تغصّ بها الأحياء الشعبيّة تتقلب في نومهما مترقّبة الشدائد ومحمّلة بأشباح الحجر الصحّي الشامل وكوابيس حذر الخروج قصد جمع القوت وظلمات غياب المرافق الصحيّة وندرة المواد الطبيّة، في معادلة تراجيديّة سالبة تقايض الجوع بالداء والموت بالموت. لقد اتفق المحلّلون والخبراء من علماء وأساتذة الاقتصاد والسياسة [24] أنّ جائحة كورونا ستكون مفعّلا لأكبر عمليّة إعادة تفكير في النظم الاجتماعية والاقتصادية القائمة ببروز تحوّلات نفسيّة جماعيّة وتضخّم الأزمات الاقتصاديّة والسياسيّة، وهو ما دفع العديد من الباحثين والناشطين إلى الاهتمام بآليّات التفاعل بين الفئات الاجتماعيّة الأكثر تضرّرا ومتابعة أدوات التواصل والتبادل المعتمدة والمحاولات التنظيميّة لإعادة تشكيل جسد اجتماعي له مناعة كافية لضمان حظوظ متساويّة للبقاء على قيد الحياة.

هنا عندما يكتمل رسم مشهد الكارثة مع تغوّل المحتكرين وهوان الدولة لا يبقى للمرء غير قرار شجاع لتجميع الأجساد المنهكة داخل أحياء "الوصم[25]" و"الرقابة الأمنيّة والمعلوماتيّة" لخوض كل معارك البقاء على قيد الحياة، فلا أفق ولا حلول للمفقّرين إلّا استجداء المساعدات من أمثالهم من المفقّرين. وقد صرحت كريمة.م عاملة تنظيف منزليّة وأم لثلاثة أبناء، أرملة، 57 سنة تقطن في منطقة "زرق عيونة " أنّ الحجر الصحّي زاد من دائنا ودينا ولم أجد إلّا أبناء الحي الذين وفّروا لنا بعض الأكل ومدّوا لنا يد المساعدة وقاموا بتوفير ملابس العيد لأبنائي. كنت أمضي رفقة أبنائي أيّام الحجر دون أكل كما أمضي ساعات في محاولة إيجاد من أعين في الأعمال المنزليّة حتى

[22] محمد شلبي، العرب، الإعلام التونسي يغرق بالبيانات الرسمية في تغطية الكورونا، 21-04-2020 ، الرابط https://alarab.co.uk/ الإعلام-التونسي-يغرق-بالبيانات-الرسمية-في-تغطية-كورونا

[23] أنظر تغطية قناة العربيّة وراديو موزاييك أف أم طيلة فترة الحجر الصحي الشامل

[24] كاتيا يوسف، الاقتصاد العالمي بعد كورونا ليس كما قبله: 7 تغييرات مرجحة، العربي الجديد، تارخ النشر 17 افريل 2020، تاريخ الاطلاع 19 أفريل 2020، الرابط الاقتصاد-بعد-كورونا-ليس-كما-قبله-7-تغييرات-مرجحة https://www.alaraby.co.uk

[25] إميل دوركايم، (1858 – 1917): الانتحار «1897»Le Suicide

أوفر بعض الدنانير، لكن أغلب الناس كانوا يتحاشون حتى فتح الباب. جعلني هذا الوضع ألجأ أكثر من مرّة لعمدة الحي والمعتمديّة لطلب إعانة إلّا أنّني لم أتحصّل منهم إلّا على "قفّة" طيلة فترة الحجر وجراية استثنائيّة صرفت في استخلاص جزء من الديون. دفعني هذا الوضع إلى بيع بعض أثاث منزلي لأتمكن من إعاشة عائلتي."

"دعونا نموت كما نريد"[26]

لقد اعتبر القرار الذي اتخذته الحكومة التونسيّة يوم 15 مارس 2020 بغلق الأماكن العامة، بداية من الساعة الرابعة مساءً (تلاها حظر تجول ليلي وغلق الحدود) ثمّ قرار الحجر الصحّي الشامل يوم 20 مارس [27]وغلق المصانع ذوي الكثافة العمّاليّة العاليّة، مجحفا في حق أصحاب المشاريع الصغرى من أصحاب محلّات الأكلة السريعة وصغار التجار والعمال اليوميّين من عمال بالمقاهي والعاملات المنزليّات... وإن تواصل نشاط بعض المصانع والمركّبات التجاريّة وتجّار الجملة فإنّ الحركيّة داخل الأحياء لم تفتر والالتزام بالحجر كان مجرّد نداء واجه آذانا صمّاء داخل أغلب الأحياء ومرافقها الحيويّة كالسوق البلدي بالكبّاريّة الّذي يعتبر من أهم المرافق التجاريّة الحيويّة في المنطقة، حيث تقبل عليه أعداد كبيرة من الوافدين من مناطق مختلفة من ضواحي تونس العاصمة كالورديّة وجبل جلود والمروج وهو ما يشكّل أرضا خصبة لانتشار الوباء خاصة أنّ أغلب روّاده من المسنّين الّذين لم يتقيّدوا بإجراءات السلامة والتباعد الاجتماعي، وكانت صيحات "كورونا... كورونا" ترتفع كلّما شوهدت سيّارة إسعاف أو سمع سعال أحد ما.

تواصلت الحركة التجاريّة للسوق طيلة فترة الحجر حيث لم تشهد توقفا إلّا ليوم واحد بعد قرار إغلاقه الذي أصدر يوم 09 أفريل 2020 ومثل صدمة بالنسبة لروّاده والباعة على حد سواء، حيث شهد صدامات بين الباعة "النصّابة" وأعوان بلديّة تونس الذين عمدوا إلى التدخل لرفع "النصب" بالقوّة العامة وسط رفض أصحابها للامتثال، حيث لم يرضخ للقرار إلّا عدد قليل من أصحاب المحلّات في حين عمد أغلب الباعة "النصّابة" إلى الانتصاب داخل الأحياء وأمام المنازل. أصدر أصحاب المحلّات التجاريّة و"النصّابة" وروّاد السوق بيانا يوم 10 أفريل 2020 [28]حول الأحداث التي وقعت ضمّنوا فيه مطالبهم التي تمحورت أساسا حول ضرورة استرجاع نشاط السوق إضافة إلى ضرورة تنظيم عملية التوافد على السوق، كما وقع توثيق بعض الشهادات في شريط قصير نشر على

[26] أندري كونت سبونفيل، دعونا نموت كما نريد، مقالة في صحيفة لوتان البلجيكيّة، 17 أفريل 2020، الرابط
https://www.letemps.ch/societe/andre-comtesponville-laisseznous-mourir-voulons

[27] كلمة رئيس الحكومة الياس الفخفاخ حول الإجراءات الخاصة بالحجر الصحي الشامل، الوطنيّة 1، 21 مارس 2020، الرابط
https://www.youtube.com/watch?v=Y8DVTBmloZQ

[28] كبارية Zone de paix، بلاغ من متساكني الكبارية، 10 أفريل 2020، https://www.facebook.com/groups/380193456220429/

صفحة "جيل ضد التهميش" تحت عنوان "الكبّاريّة بين جائحة الكورونا وأشباح الجوع"[29] حيث صرّح أحد التجّار أنّه لم يقم بخلاص معاليم كراء محل عمله فضلا عن كثرة الالتزامات الماديّة العائليّة وأنّه لا يملك أي مورد رزق آخر وأنّ قرار الإغلاق يقايض الناس بين الموت جوعا أو الموت بالكورونا وأنّ لا خيار إلّا مواصلة العمل، فالدولة تترك أسواق الجملة والمغازات الكبرى مفتوحة وتحرم الباعة من الانتصاب ومواصلة العمل كشكل سافر من التمييز. كما طالب هذا التاجر بالمساواة في التعامل مع التجّار الّذين يدفعون الضرائب كأنّه يصرخ بعبارات أندري كونت سبونفيل "دعونا نموت كما نريد".

الكبّاريّة في 10 افريل 2020

بلاغ من متساكني الكبّاريّة

تفاجئ رواد و تجار سوق الكبّارية بقرار إغلاق السوق يوم الخميس 09-04-2020 من قبل فيلق من قوّات الأمن و كما هو معلوم يعرف سوق الكبّاريّة إقبالا مكثّفا من قبل سكان المنطقة و المناطق المجاورة كالورديّة و جبل جلود و المروج ومع تواصل انتشار جائحة كوفيد-19 في مختلف مناطق البلاد تطوّعت مجموعة من أبناء المنطقة لتحسيس الوافدين على السوق و مقر البريد و المعتمديّة التي تشهد أيضا تجمّعات للمواطنين لتنظيم الصفوف و معاضدة مجهودات السلط المحليّة في التعقيم و التنظيم و قد حرصت هذه المجموعة على خلق ديناميكيّات أفقيّة لتجميع المساعدات وتوزيعها على العائلات المعوزة و المحدودة الدخل وفق معايير التضامن الجماعي و العمل التطوّعي هذا وقد تقدّمت جمعيّة جبل ضد التهميش بمطلب لتوفير دوريات قارة لأعوان الشرطة البلديّة و الشرطة البيئيّة لتحقيق أكبر قدر ممكن من النجاعة لتنظيم سوق الكبّاريّة و لتواصل نشاطه خاصة أنّه يعتبر المتنفس الاقتصادي الوحيد لأغلب متساكني المنطقة.

و عليه نؤكد أنّه من الممكن مواصلة نشاط السوق دون توقف مع احترام إجراءات الوقاية كنّا قد بلّغناها في إطار مطلب الجمعيّة المذكورة أعلاه و ذلك عبر :

1- تركيز دوريّة قارة للشرطة البلديّة أمام سوق الكبّاريّة و تركيز ثلاث مجموعات من المتطوّعين موزعين على كامل المداخل الرئيسيّة للسوق.

2- توفير دوريّة متنقلة من الشرطة البيئيّة يعاضدها التجار داخل السوق و مجموعة رابعة من المتطوّعين.

3- إعتماد توقيت الحصص لكل منطقة لتقسيم عدد الوافدين على السوق يقع تحديدهم عبر مكان الإقامة المدرجة في بطاقات الهويّة :

أ- منطقة الكبّاريّة و إبن سينا و الورديّة 6 و حي النور من السابعة صباحا الى العاشرة.

ب- منطقة جبل جلود و حي محمد علي من التاسعة الى منتصف النهار.

ج- منطقة المروج و جبل جلود و باقي المناطق من منتصف النهار الى الثانية بعد الزوال.

و عليه يهمّنا نحن نساء و رجالات الكبّاريّة التعبير عن التزامنا بإجراءات الوقاية اللازمة لمجابهة جائحة كوفيد-19 و تعاضدنا للحد من انتشاره بكل الإمكانيّات المتاحة ماديّة كانت أو عينيّة و تخصيصنا لمجموعات تدخل لمزيد التحسيس و التوعيّة للوافدين على سوق الكبّاريّة و نؤكد على ضرورة تجنّب إستعمال العنف و ضرورة التنسيق و الإعلام لإتخاذ مثل هذه القرارات

كما ندين إستعمال القوّة و ترهيب المواطنين بإستعمال "المارتاك" لتفريقهم وهو ما تداولته صفحة oxygene tunisie عبر الرابط الموجود أسفله كما ننبّه الى الوضع المعيشي المتردّي لأغلب سكان المنطقة الذين يعانون الخصاصة و الهشاشة و إستفحال الفقر في جهتنا.

نؤكد نحن نساء و رجالات الكبّاريّة أنّ لا مجال لمجابهة هذه الجائحة إلّا بتكثيف عدد الفحوصات اللازمة للكشف عن هذا الفيروس و تظافر جهود الدولة و الشعب لتوفير مستلزمات الوقاية و تنظيم و تحسيس المواطنين لرفع درجات وعيهم و احتياطاتهم.

إنّنا بنات و أبناء الكبّارية مجتّدون ليلا نهارا للتصدّي لكلّ مظاهر الإخلال بمعايير الحجر الصحّي و مجابهة الإحتكار و عمليّات التحيّل التي يقوم بها بعض المتسلقين و الإنتهازيين لإستغلال هذه الأزمة و مراكمة موارد ماليّة و عينيّة لخدمة مصالحهم الشخصيّة و الفئويّة و سنصدر بلاغا خاصا في هذا الإطار نحدد فيه بعض التجاوزات الّتي لاحظناها و نطرح فيه سبل التصدّي لمثل هذه التجاوزات.

هذا و ندعوا مختلف أبناء الأحياء الشعبيّة إلى مواصلة حملات التوعية و التضامن الجمعي الأفقي للخروج من هذه الجائحة .

عاش الشعب التونسي

عاش الوطن

[29] جيل ضد التهميش، الكبّاريّة بين جائحة الكورونا وأشباح الجوع، تاريخ النشر 19 افريل 2020 الرابط https://www.facebook.com/GAMkabaria/videos/162149665107768/

كسر الحجر وفعاليّة التضامن

واكب متساكنو الأحياء الشعبيّة بتونس أخبار تفشي "كوفيد 19" في مدينة ووهان الصينيّة وسقوط ضحاياه بالمئات ثمّ بالآلاف ثمّ بعشرات الآلاف عابرا الدول والقارات التي اعتبرت رموزا للتقدم والتطوّر في المجال العلمي والطبّي ومن أقطاب التحضّر والتمدن الغربي والشرقي بحرص وريبة وقلق متصاعد خاصة مع ارتفاع أعداد المصابين في إيطاليا وفرنسا، وذلك لوجود المئات إن لم نقل الآلاف من أبناء المنطقة في عديد المدن الإيطاليّة والفرنسيّة. وقد أحدث تسجيل أوّل حالة يوم 2 مارس 2020 بالبلاد التونسيّة حالة ذهول وفزع مع تواصل اعتماد خطابات العسكرة و"الحرب"[30] لفرض "حالة الطوارئ" و"القوانين الاستثنائيّة" إذ تفطّن متساكنو الأحياء أنهم لم يكونوا أبدا معزولين عما يحدث في هذا العالم وأنّهم متروكون بلا دفاعات أمام عدوّ مجهول وأنّ ضريبة ما غير متوقعة في انتظارهم نتيجة إقحامهم القسري في نظام معولم مفتوح على مستقبل مجهول لينتج "هلعا معولما"[31]. وأنّ حقوقهم وحريّاتهم وديمقراطيّتهم الناشئة صارت القربان الأمثل المقدم على مذبح الفيروس، وما رهن البلاد بالتهافت على التداين من البنوك الدوليّة والصناديق الماليّة العالميّة وتكريس المحاباة والمحسوبيّة العائليّة والسياسيّة إلاّ تجلٍّ عملي لتسلسل جيني لجسد اقتصادي وسياسي "ريعي" عليل بداء "الامتيازات"[32] ورّث الحكومات قطاعات حيويّة متآكلة ومبعثرة.[33]

هذا ما جعلنا نشهد زخّات من الهلع والتهافت من أجل تخزين بعض المواد الأساسيّة كمادة الفرينة والسميد والثوم ... ولّد ذلك اكتظاظا خانقا ومناوشات حتى مع قوات الأمن الّتي تدخّلت لتفريق التجمّعات[34] والتجمهرات أمام المغازات الكبرى ومحلّات البيع بالجملة ومراكز البريد والمعتمديّة.[35]

عبد السلام.ج 22 سنة عاطل عن العمل

بعد تداول الناس الحديث عن الكورونا في صفحات التواصل الاجتماعي كان أغلبهم غير مبالين رغم أنّ هناك العديد من الإصابات، وكانت العائلة ترفض خروجي من المنزل إلّا للقيام بالتبضّع وكنت في أغلب الأحيان ملتزما بالإجراءات الصحيّة للتوقي من فيروس "كوفيد 19"، بعد أيّام من إعلان الحجر

[30] خطاب رئيس البرلمان التونسي راشد الغنّوشي خلال الجلسة المنعقدة اليوم الخميس 26مارس2020

[31] ماهر حنين، الكورونا وعولمة الهلع، المغرب، 16 مارس 2020 ، الرابط /قضايا-وأراء https://ar.lemaghreb.tn/item/42453-الكورونا-وعولمة-الهلع-بقلم-ماهر-حنين

[32] Aziz krichen, L'autre chemin, éd. Script Éditions, Bordeaux, 2019,

[33] أنظر Amin Hammas, Structure et organisation des services de réanimation adulte de la Tunisie: État des lieux رسالة دكتوراه نوقشت بكلية الطب في تونس، جانفي 2020

[34] أنظر oxygene tunisie، حملة مشتركة بين الامن الوطني، الشرطة البيئية، الشرطة البلدية والجيش الوطني بالكبارية بتونس العاصمة، 9 أفريل 2020، https://www.facebook.com/oxygenebizerte/videos/207773530514246

[35] أنظر أخبار المواطنة، فيديو، احتقان وتدافع حول "السميد" في جبل جلود، 19مارس 2020

كان الروتين اليومي يسبب لي القلق خاصة أنّني أقضي أكثر من 12 ساعة نائما في حين ينقسم بقية الوقت بين المنزل والحي إلى أن قررت تغيير سلوكي، حيث قمت بتنظيم أوقات النوم وعاداتي الغذائيّة واهتممت أكثر بصحّتي وبدأت بالقيام بتمارين رياضيّة فرديّة في المرحلة الأولى ومن ثمّ جماعيّة رفقة أبناء الحي بغابة ابن سينا. وكانت هذه فرصة للتقرّب من بعضنا البعض، كما حصل نفس الأمر مع أفراد العائلة حيث اغتنمنا توقف جميع أفرادها عن العمل للتعاون في أعمال المنزل والحوار ومتابعة التلفاز. كانت الفترة الأولى من الحجر صعبة على المستوى المالي خاصة مع نفاد المدّخرات الماليّة للعائلة وبدأنا في اقتصاد مصاريفنا المعيشيّة ومع ضيق الحال تكاثفت المشاحنات بيننا. مع تسجيل العديد من حالات الوفاة جرّاء الكورونا كان هوس الوالدة بنظافة المنزل والتزامنا بمعايير الوقاية داخله يتصاعد ويقابل ذلك عدم التزامي بالتباعد الاجتماعي في الحي ولقائي اليومي مع الأصحاب للقيام بالرسم على الجدران الذي ننتهي منه في أوقات متأخّرة من الليل، حيث وقعت إيقافات في مجموعتنا لكسرنا حظر التجوّل. لم أغادر الحي طيلة فترة الحجر وبقيت على اتصال بالأصدقاء القاطنين في مناطق بعيدة عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

مع تدهور الحالة الماديّة للكثير من العائلات التجأ البعض إلى الأقارب والبعض الآخر تمكّن من تحصيل أكلات قدّمت طيلة شهر رمضان من قبل مطعم يقدم الوجبات مجّانا، فكانوا يقفون في شكل طوابير طويلة دون نظام. نفس المشهد كنت قد لاحظته في مقر المعتمديّة والسوق، وقد حاول العديد من الشباب التدخل بشكل يومي لتنظيمهم لكن الحال بقي على ما هو عليه إلى حدود اليوم"

كسر الحجر

لقد تصاعد الإحساس بالعزلة والفقد والنسيان في الأيام الأولى من الحجر الصحّي ممّا جعل الكثير من الناس يصرّحون بأنهم متروكون في معركة مع المجهول[36]، فكثرت الدعوات إلى الخروج ليلا للتضرّع والدعاء وإن لم تلقَ مشاركة كبيرة من قبل المتساكنين، إلّا أن أغلب المشاركين رفعوا أصواتهم للرجاء حاملين في أيديهم هواتفهم الذكيّة وعيونهم مثبّتة على عدد المتابعين ومحتوى التعليقات لا قلب خالص ولا عقل متأمّل، لا كلمات عن الخلاص ولا خشوع مطمئن. فقط كانت الحاجة لملء جعبة الذات بنفحات من "الاعتراف" الافتراضي و"الحضور" عند العزلة في دقائق العرض المباشر، كما تعاظم الإحساس بالخوف مع تسجيل سرقات في أحياء كحي ابن سينا وهو ما دفع العديد من أبناء الأحياء لتبادل المناوبة على الحراسة وتنظيم دوريّات تفقد وبحث بثّت بعضها على شبكات التواصل الاجتماعيّة. يحدث ذلك مع تواصل تسجيل عشرات الإصابات وسقوط ضحايا على مستوى وطني.

[36] أحمد الساسي، عزلة من أجل الإنسانيّة، التيماء، 23 مارس 2020، الرابط http://attayma.com/archives/6584

إنّ ملايين الناس داخل الأحياء الشعبيّة الرازحين تحت عتبات الخوف من الجوع يحيون تحت طائلة الصور النمطيّة والوصم وقصف ماكينات الدعاية الضخمة والإعلام البليد الّذي دأب على ترويج صور التدافع وعدم احترام التباعد الاجتماعي دون الوقوف على شطحات "هستيريا الوباء" وإرث الأحياء المفعمّ بالنسيان و"العنصريّة"[37] ودون تحليل وقع الجوع على نفوس وأمعاء المتساكنين المتخبّطين على صفيح تخلّي الدولة عن دورها الاجتماعي وتململ اقتصاد السوق. لقد شُرّد الآلاف من ساكنيها ومنذ عقود في عراء غابة السوق الحرّة والمنافسة و "الفردانيّة" ولم يصاحبوا سوى الخصاصة حتى أصبحوا "مهدّدين في بقائهم على قيد الحياة" لانتمائهم إلى رقعة هامشيّة يرتفع فيها صراخ عناصر الأمن لملازمة البيوت واحتضان الفاجعة[38]، جعلت الكثيرين على يقين أنّه لا مجال للبقاء على قيد الحياة، إلّا داخل الحيّز الجغرافي للحي "الحومة" حيث مثّلت مجالا لكسر الحجر إذ تجد العشرات من الشباب والعائلات جالسين في تجمّعات أمام المنازل ومفترقات الأنهج وداخل الأحياء وقد استغلّوا الوقت صباحا لتنظيم مباريات كرة القدم وممارسة أنشطة رياضيّة جماعيّة وليلا للعب الورق والتسامر حتّى ساعات متأخّرة. كما قامت مجموعات الألتراس بالتنافس على رسم شعاراتها وصورها ليلا نهارا على جدران الأبنية. كانت المطاردات الأمنيّة الليليّة شبه يوميّة وسجّلت إيقافات عديدة ممّا مثّل مشهدا كوميديّا مرحا يتحدّى شبح العدوى ويسخر من صرخات فزع المختصّين معلنا تواصل الحياة في عمق الوباء. لذلك كان من أوكد المهام خلق مبادرات تعمل على إزاحة قتامة وهول الواقعة وتواصل الدفاع عن العدالة وتبني المقاومة الاجتماعيّة طريقا والتي أثبتت فاعليّتها بتنامي مظاهر التعاضد الشعبي والتضامن الاجتماعي.

يقول مجدي.ر 36 سنة بائع غلال وخضار بالسوق البلدي بالكبّاريّة: "بادئ الأمر وجدت صعوبة في تقبّل خبر انتشار الفيروس والخطر الذي يشكله وكانت الفاجعة أنّ الكورونا وصلت إلى تونس وبدا أنّ الوضع لن يكون كما كان عليه في السابق . بدأت في اتخاذ إجراءات الوقاية كي لا أنقل العدوى للعائلة والجيران، لكن مع مرور الوقت لم أعد أبالي بإجراءات الوقاية خاصة مع عدم تسجيل إصابات في أحيائنا. تواصل عملي بالسوق طيلة فترة الحجر مع توقفي ليوم أو يومين. لم تتراجع مداخيلي كثيرا وذلك كان الحال بالنسبة لأغلب أصحاب المحلّات، إلّا أنّ النصابة كان وضعهم يسوء يوما بعد يوم. وجدت صعوبة في التنقل أربع مرّات في الأسبوع إلى سوق الجملة لشراء السلع أين كانت الحركيّة بطيئة بعض الشيء مع وجود بعض الاحتياطات من قبل بائعي الجملة. كان عمل الأمن في السوق البلدي يقتصر على التواجد لمدة لا تتجاوز ربع ساعة في اليوم لإخلاء ممر السوق. هذا التدخل لم يكن بطريقة منتظمة وهو ما دفعنا للتدخل مع الوافدين للسوق لتنظيمهم وتشجيع

[37] Slavoj Zizek, «Clear racist element to hysteria over new coronavirus», in: RT- Question More. 3 Feb, 2020 https://www.rt.com/op-ed/479970-coronavirus-china-wuhan-hysteria-racist

[38] أنظر برنامج بلا قناع، حملات أمنية تتواصل...كورونا لم تنته بل مازالت في أشدها من يقنع المواطن؟، 22أفريل 2020، الرابط 8https://www.youtube.com/watch?v=igqEaLoBEt

شباب المنطقة الذين شكّلوا مجموعات لتحسيس الناس وتنظيمهم. كنّا نجلس ليلا أمام المنازل للعب الورق والتسامر ومتابعة الشباب الذين كانوا يقومون برسوم على الجدران. شاركت أنا وبعض التجار في تقديم بعض الخضر والغلال إلى المجموعات التي كانت تجوب السوق لجمعها."

انفجار تضامني مع اتساع رقعة الجائحة

انطلق نشاط مجموعات مختلفة من أبناء وبنات الكبّاريّة مع تعالي الأصوات المنادية بضرورة التدخل لإنجاد عائلات تعيش الفقر المدقع ومع استحالة التعويل على أجهزة الدولة ومرافقها العموميّة الّتي لاقت صعوبات جمّة في أداء مهامها، وأصبح تعويلها على المجتمع المدني والمبادرات المواطنيّة أمرا محتوما. عانت العديد من المبادرات الشبابيّة ومجموعات الفعل الميداني من التغييب والمحاصرة والنكران لحريّة اختيارها لمجالات نشاطها ورفضها القولبة والانسياق مع التيّارات الوصوليّة ورفض احتوائها داخل عباءات سياسيّة وتكنوقراطيّة طوال سنوات ومطالبتها المستمرّة للسلط المحليّة والمركزيّة لتبنّي إستراتيجيّة تنمويّة شاملة باعتبار أنّ محيطها كان ولازال مثقلا بتاريخ التسلط والإقصاء ومسايرا لماكينات "صناعة الموافقة"[39] ومنظومة البؤس والحيف. ولا يعد انتفاض الدولة بأجهزتها وقوانينها الاستثنائيّة لإنقاذ ما تبقى من جسدها العليل ولامتصاص "الهلع المتناثر" في الشوارع الفقيرة وفي قرى البؤس إلّا اكتمالا للمهزلة، إذ ضربت الحجر في مقتل وأغدقت على 623 ألف عائلة معوزة بمبلغ 200 دينار[40] ليتدافعوا أمام مقرّات المعتمديّات ومراكز البريد ومحلاّت الأنترنات لاستخراج وطباعة المطالب.

عزّزت جائحة كورونا وإجراءات الحجر الصحّي رغبة العديد من الشباب في التنظّم الفاعل والميداني داخل الجمعيّات والمبادرات المحليّة، حيث فعّلت هذه المبادرات التآلف والتضامن لمجابهة معضلة الحجر مع النداءات التي وقع تلقفها من صفحات شبكات التواصل الاجتماعي للتطوّع لمجابهة فيروس كورونا حيث عمدت إلى التشكل في نواتات ضمّت أساتذة وطلبة وفنّانين ومغنّي راب وبعض المقيمين بالخارج من أبناء المنطقة لجمع التبرّعات، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ العديد من المبادرات قد تشكلت في البداية على مستوى الأحياء لتتشابك في مراحل وتتخصّص في أخرى، ممّا جعل عددها يرتفع وأشكالها تتنوّع. حيث وقع أكثر من مرّة التنسيق بين هذه المجموعات المتطوّعة لإسناد بعضها البعض وتنسيق وتقسيم مجال تدخلها، كما قامت بعمليات تبادل عبر مقايضة مواد الغذائيّة فيما بينها، مع استمرار الحجر الصحّي، اشتغلت أغلبها على مستوى محلّي فيما تمكنت أخرى من تغطية مختلف مناطق المعتمديّة وتوسّعت لتشمل بعض المعتمديّات المجاورة كفوشانة

[39] نعوم تشومسكي، وإدوارد هرمان، الاقتصاد السياسي لوسائل الاعلام: صناعة الموافقة" صدرت أول طبعة له في عام1988

[40] كلمة رئيس الحكومة التونسي بتاريخ 5 مارس 2020 2020: 0https://www.youtube.com/watch?v=dViOAlSpuP

والمحمّديّة والملّاسين وحي هلال وحي التضامن. هنا نستطيع تحديد التجارب التي سنتخذها لنقلها لا باعتبارها الوحيدة التي تستحق الدراسة وإنّما لمسايرتنا ومشاركتنا في ممارساتها وأنشطتها.

"جيل ضد التهميش": التضامن الشعبي ضمن التباعد الاجتماعي

مثّل التدبّر اليومي لحالة الهشاشة والتهميش للفئات والعائلات الأكثر تضرّرا من المنظومة الاقتصاديّة والتي سرّعتها وفاقمتها جائحة الكورونا أساس عمل الجمعيّة وهي جمعيّة ذات صبغة عامة انطلقت في النشاط منذ 2013 ووقع إدراجها في الرائد الرسمي أواخر سنة 2015 تنشط بصفة عامة في الأحياء الشعبيّة لتونس الكبرى وأساسا بمعتمديّة الكبّارية، يقول أنور.هـ 23 سنة عضو بجمعية "جيل ضد التهميش"، طالب، قاطن بحي السلامة الكبّاريّة:" لقد تنظّم العمل على المبادرات أفقيّا ووزعت المهام حسب اختيار المتطوّعين في مجموعات مختصّة أتت متناسبة مع حاجيّات متساكني المنطقة كـ"كوجينة الزوّالي الكبّاريّة" الّتي تخصّصت في توزيع "الواجب التضامني" المتمثل في لوازم منزليّة ومواد غذائيّة وفي بعض الأحيان معدّات منزليّة و"سبيسيريّة الحومة" و "مجموعة التنظيم والتوعية" مع تنظيم حصص دعم ومراجعة مجّانيّة لتلامذة الباكالوريا إضافة إلى توفير ملابس وحلويّات العيد لعشرات من العائلات. هذه الأعمال أمّنها بنات وأبناء المنطقة شيبا وشبابا كلّ حسب موقعه وإمكانيّاته."

يضيف أنور "حفّزت المعرفة الجيّدة بواقع الأحياء والعلاقات المنتشرة على امتداد المعتمديّة عمل الجمعيّة والمجموعات الميدانيّة ممّا أكسب المبادرات فاعليّة للوصول إلى العائلات الأكثر تضرّرا والتشبيك مع مبادرات أخرى في كل من الورديّة وابن سينا وحي النور والمروج2 وهو ما اعتبر نتيجة لفعل قاعدي ميداني منذ ما يزيد عن السبع سنوات لم ينحصر داخل وعاء إيديولوجي أو سياسي ومحاولة للاستنجاد بعديد التجارب والمقولات لحلحلة الأوضاع الكارثيّة داخل هذه الأحياء الشعبيّة."

تمكّنت هذه المبادرات من إعادة تنشيط مبدأ الواجب الإنساني وإيتيقا الكرامة البشريّة وقضيّة المصير المشترك، ليشكل سكّان الأحياء منصاتهم الخاصة للفعل والتعاون المشترك، في فترة الحجر الصحّي الشامل، وينتقلوا بذلك من الدفاعيّة السلبيّة إلى المقاومة النشطة ومن انتظار المنن والهبات إلى تكثيف التضامن الاجتماعي العام. استعملت فيها نماذج عمليّة تاريخيّة للفعل التضامني وبدائل اقتصاديّة تشاركيّة توسّطتها وسائل التواصل العصريّة. هذه المجهودات الذرّية لهذه المبادرات المكثّفة مثل كثافتها السكّانيّة مكّنت من بناء منظومة علاقات قائمة على التضامن الواسع منشّطة بذلك مضادات حيويّة اجتماعيّة واقتصاديّة لإقامة نهاية للسلبيّة والارتكاسيّة التي أخضعت هذه الأحياء طوال عقود.

تقول مريم.ج 19 سنة، تلميذة بالورديّة "هدف فعلنا هو تمكين المتضامِن معهم من أدوات للعيش والانخراط في فعل تضامني ينتفع به آخرون وهكذا دواليك، وقد تجسّد ذلك خاصة في تجربة "ملسوقة الكوجينة" و "قفّة الإفطار" إذ وقع مع بداية شهر رمضان الاتصال بربّات بيوت أصيلات المنطقة، كنّ قد تحصّلن على "الواجب التضامني" اخترن لوضعهنّ المادي الصعب ولقدرتهنّ على تحضير ورقات الملسوقة. قدمنا لهنّ عرضا بقيامنا بتوفير المواد الأساسيّة ومبلغا ماليا لقاء عملهنّ ومع موافقتهنّ تجنّدنا لتنسيق العمليّة وتوزيع الملسوقة على الحوانيت قصد بيعها. كانت المحصّلة أن ضمنت "ملسوقة الكوجينة" إعاشة أربع عائلات طيلة شهر رمضان كما مكّنت الأرباح من إعداد أكثر من 40 كلغ من حلويّات العيد حضّرت في منازل أعضاء الجمعيّة والمتطوّعين بمعونة من عائلاتهم. نفس هذا المثال كان قد طبّق في علاقة بتحضير قفّة الإفطار الّتي ضمنت إمداد خمس من فاقدي السند بالإفطار طيلة شهر رمضان تطوّعت عائلات على إعداده وكلّف متطوّعون من شباب وشابات الأحياء بإيصالها كل يوم. لتطوير أساس تعاقدي لمبدأ التضامن وترسيخه كآليّات اشتغال يوميّة. كنّا قد عبّرنا أكثر من مرّة عن رفضنا لمقولات الشفقة وسخطنا على الكثير من المتاجرين بمعاناة الناس. كما رفضنا بعض الطرق غير القانونيّة لتقديم المساعدات كتوفير نسخة من بطاقة التعريف الوطنيّة، إذ تمثل انتهاكا للمعطيات الشخصيّة كما رفضنا أخذ صور للمتضامن معهم أو ذكر أسمائهم. لم نكن في مزاحمة مع الجمعيّات الخيريّة لأنّ فعلنا وممارستانا تختلف جوهريّا، كما أنّنا أردنا تقديم درس لمنظومات تبييض الأموال والفساد ومجموعات رسملة الفقر لصالح جهات سياسيّة واقتصاديّة متنفّذة."

كوجينة الزوّالي الكبّاريّة: الواجب ينفي الشفقة

عمد أعضاء من جمعيّة جيل ضد التهميش إلى إطلاق مبادرة "كوجينة الزوّالي الكبّاريّة" تجاوبا مع الدعوة الّتي أطلقها مجموعة من الناشطين على شبكات التواصل الاجتماعي لتفعيل مبدأ وآليّات التضامن والمقاومة الاجتماعيّة الّتي كانت موجودة سلفا داخل الجسد الاجتماعي التونسي كـ"الباية" الاشتراك في شراء خروف أو لحوم والقيام بالتقسيم على الشركاء وإعطاء أقسام للعائلات المعوزة في الحي و"الجمعيّة"، مساهمة مجموعة من الأفراد بمبلغ مالي شهريا يقع ترتيب تسلّمه حسب التاريخ الذي يحدده كل شخص من المجموعة. ارتكز تجميع "الواجب التضامني" على تطوّع نساء ورجال المنطقة وتشريك وتحفيز أصحاب المحلّات الصغرى لتكون العمليّة أفقيّة قدر الإمكان تحت شعار "من الزوالي للزوّالي" حيث وقع وضع صناديق كرتونيّة "كرضونة" في العديد من الحوانيت في مختلف الأحياء ثمّ تجميعها لإعادة توزيعها على مستحقيها. وقد وقع تطوير هذا الشكل التضامني لتكفّل أصحاب المحلّات "الحوانيت" عمليّة التوزيع لإلمامهم بالوضعيّات الاجتماعية ولاستثمار القوى المتطوّعة في أنشطة أخرى تتطلّب الإسناد والدعم. هذا مع تجميع كل من الخضر والغلال واللحوم من السوق البلدي بعد استكمال عمل التنظيم وذلك بالمرور أمام المحلّات حاملين صناديق يقوم

التجّار بملئها طوعا ليقع فرزها وتعبئتها وتوزيعها رفقة المواد الغذائيّة المجمّعة من الفضاءات التجاريّة الكبرى أو المقتناة بمساهمات ماديّة من نساء ورجال المنطقة، وقد استطاعت هذه العمليّة تغطية أكثر من 600 عائلة.

رائد.ض 18سنة تلميذ باكالوريا آداب، عبّر أنّ روايته مع الكورونا كانت فريدة، فقبل الإعلان عن أول إصابة بفيروس كورونا المستجد كنت قد تلقّفت بكل حسرة خبر وفاة مفاجئة لزميلتي بالدراسة بسبب زكام حاد وعسر في التنفس وقد استربت من هذه الوضعيّة لاطّلاعي على أعراض الكورونا في شبكات التواصل الاجتماعي. كان ذلك قبل أسبوع من قرار إيقاف الدروس الذي أربكني وتخوّفت من أن يؤثر على نتائجي الدراسيّة وعدم قدرتي على خوض تجربة الباكالوريا كاملة. كنت أخشى أنّي قد أصبت بالعدوى خاصة أنّي مصاب بضيق التنفّس لذلك لازمت غرفتي. استمرّ هذا الأمر أسبوعا كاملا ولم أحس بالراحة إلّا بعد انقضاء 14 يوما، إثر ذلك، كنت أغادر المنزل لمجرّد قضاء الحاجيّات اليوميّة وكانت أمّي شديدة الحرص على تقيّدي بارتداء الكمّامة وتعقيم يدي وملابسي في كل مرّة أغادر فيها. كنت أمضي الوقت في مشاهدة الأفلام ليلا والنوم صباحا. عند خروجي من المنزل كنت أرى الناس يمارسون حياتهم اليوميّة بطريقة عاديّة وكأنّ عائلتنا هي الوحيدة التي التزمت بالحجر وعند حديثي مع بعض الأصدقاء كانوا يتندرون لالتزامي بالحجر. لاحظت أنّ النساء الطاعنات في السن كنّ الأكثر خشية من هذا الوباء، إذ كنّ يلففن وجوههنّ بوشاحهنّ وكان الشباب غير عابئ بخطر الكورونا وقرار الحجر الصحي، إذ لاحظت أنهم كانوا ينتظرون هذه الفرصة للتجمّع ليلا وتنظيم مباريات كرة القدم قبل الغروب. كان البعض من الأصدقاء يتحدّثون عن المطاردات الليليّة وعمليّات الكر والفر مع قوات الأمن. كنت في مرحلة متقدّمة من الحجر أشارك في تصوير فيديوهات هزليّة قصيرة لأقوم بنشرها بعد ذلك على صفحتي بالفايسبوك كما توفّر لي الوقت لكتابة أغاني slam وخواطر. لست من محبّذي العزلة ولكن الحجر مثّل لي فرصة لتصفية ذهني والتركيز في الأشياء المحبّذة حيث قمت بمتابعة تكوين عبر الإنترنت حول آليّات الكتابة السينمائيّة. عرفنا صعوبات ماليّة في كامل فترة الحجر الصحّي العام حيث توقفت أمّي عن العمل وهي عاملة بمعمل وأبي أيضا وهو عامل بمقهى، وكانت هذه نفس الوضعيّة بالنسبة لأغلب عائلات زملائي في الدراسة.

بالنسبة لمتساكني الحي كانوا يلجؤون إلى الجيران لتحصيل الخبز وبعض الأغذية وكان فزع الناس ليس بالموت من الكورونا بل بالموت جوعا. مع قدوم شهر رمضان لم أكن على علم أنّ هناك مبادرات لمساعدة العائلات المعوزة في الحي إلى أن شاهدت فيديوهات لتنظيم بعض من أبناء الأحياء لسوق الكبّاريّة، ولمعرفتي ببعض الناشطين قمت بالاتصال بهم وبالانخراط معهم في كل ما يتعلّق بالنشاط السمعي البصري، حيث سجلنا فيديوهات تواكب الأنشطة كما قمنا بدورتين تدريبيّتين في مجال السينما. وقد تمتعت بدروس الدعم المجّانيّة في إطار برنامج التعليم الشعبي المنظّمة من قبل جمعية "جيل ضد التهميش" حيث تلاشى هاجس الخوف من تحصيل المبالغ الماليّة اللازمة

لحصص الدعم كما كان المستوى العام لمجموعات المراجعة محترما جدّا وحفزني ذلك على مزيد التركيز والعمل لنيل شهادة الباكالوريا.".

خـــــاتمة

إن كانت روايات الحجر الصحّي في الأحياء الشعبيّة متشابهة فإنّها تبقى فريدة من نوعها، إذ كانت هذه الأحياء ولازالت تعيش في ظل منظومة اقتصاد السوق المتهاوي وتحت طائلة دولة الاستثناء المهددة للنظام الديمقراطي، لتخلق واقعيّة خاصّة وآليّات متفرّدة للبقاء والإفلات من "طاعون نيوليبرالي فعّل أكبر موجة عدوى عالمية في التاريخ الحديث"[41] والخروج من الكابوس الذي يكاد يتمكن من عالم هش هشاشة الوجود البشري الّذي تفطّن أن ما تولّد عنده في فترة الحجر الصحّي هو كامن فيه أصلا. كما يبدو مؤكدا أنّ "الكوفيد-19" لن يكون الفيروس الأخير الّذي يهدّد البشريّة، وأنّ انتشاره العالمي أعلن دخول الإنسانيّة في فصل جديد من المعارك مع الموت وهو ما سيركز الأنظار من جديد على منظومات الرعاية الصحيّة والبحث العلمي والضمان الاجتماعي، ويعيد التفكير في منظومة الاقتصادية النيوليبراليّة التي تهاوت مؤسّساتها الماليّة وانكمشت شركاتها العابرة للقارات وتصدّعت وعود شركات الأدويّة والمخابر الخاصة في توفير العلاج في اللحظات الأولى من الإعلان على انتشار الوباء عالميّا، ومع وعي الدول بخطورة وكارثيّة المشهد، تفطّنت أنّ مجالها الحيوي أصبح معزولا وبات مجال نفوذها مستهدفا، إذ فرض الكورونا المستجد إغلاق الحدود بين الدول واعتماد سياسة الحجر الصحي الشامل وإعلان حالة الاستنفار الاقتصادي وتفعيل قانون الطوارئ، هذا ما جعل وسائل الإعلام تقفز بسرعة البرق من الدعاية المفزعة لنشر رهاب الإرهاب إلى توزيع الهلع الكوروني و "التدمير البنّاء" بعبارة المؤرخ الأمريكي تاير ماهان (Alfred Thayer Mahan).

[41] Noam Chomsky: Coronavirus - Quels sont les enjeux? | DiEM25 TV الرابط https://www.youtube.com/watch?v=t-N3In2rLI4&feature=emb_logo

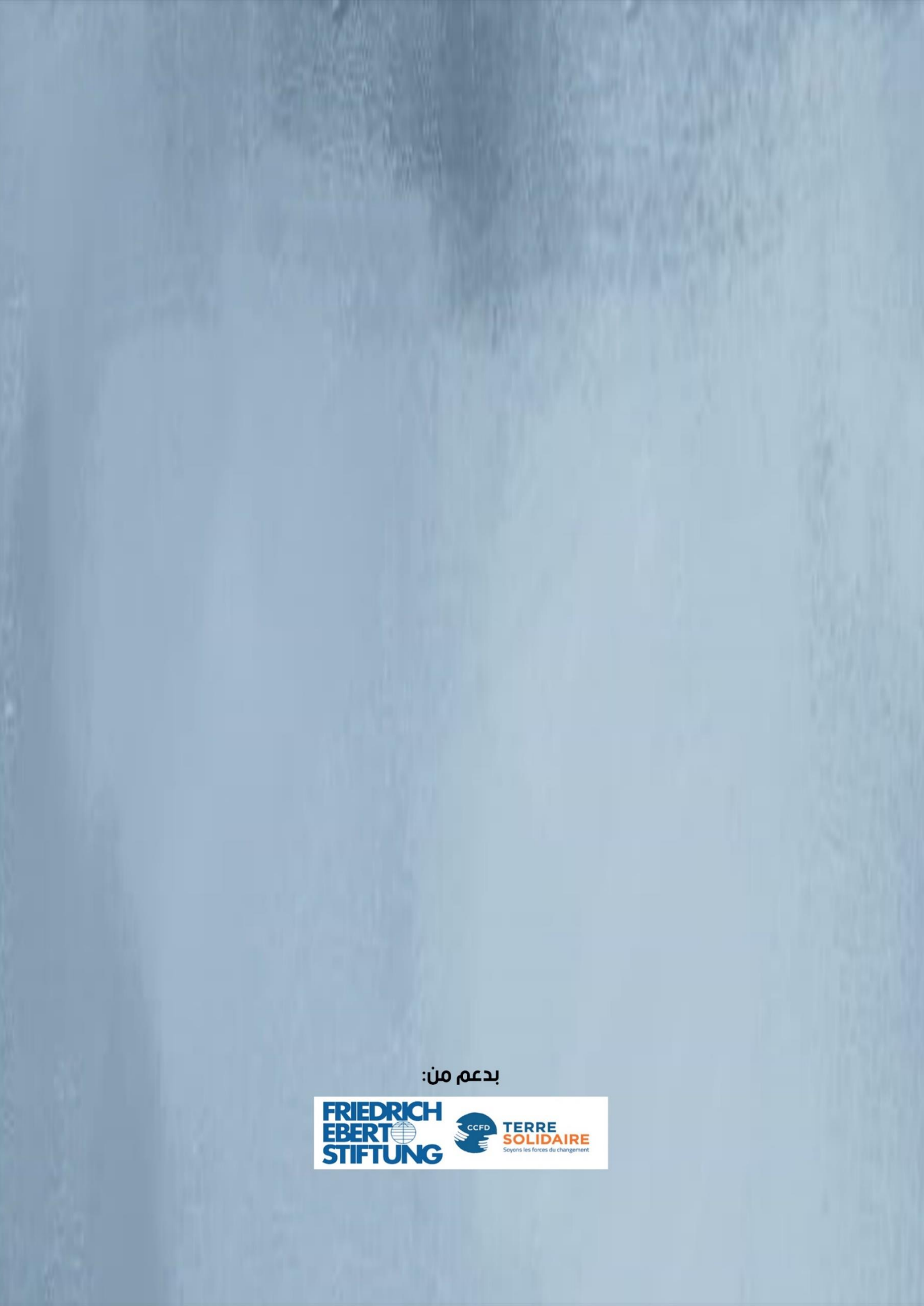

بدعم من:

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

CCFD TERRE SOLIDAIRE
Soyons les forces du changement